أثر الفنون الجميلة في ترقية الشعور

بقلم الكاتبة زينب محمد حسين

" ألقيت هذه المحاضرة من محطة الإذاعة اللاسلكية
بدعوة من وزارة الشئون الاجتماعية "

سيداتى ... سادتى

لا جدال فى أن الفنون الجميلة فى كل أمة هى عنوان حضارتها ، والدليل الناطق على رقيها وسمو شعور أبنائها . فعلى قدر الانتاج الفنى لكل أمة ، تقاس درجة حضارتها وتقدمها .

وتشمل الفنون الجميلة الأدب والموسيقى والتمثيل بنوعيه ، السينمائى والمسرحى والنحت والتصوير وغير ذلك من الأشياء التى يرفرف عليها علم الفن وتتأثر بها المشاعر .

فمثلا الكتب وهى سجل الأدب لها فى نفس الانسان مثل ما للمربى فى نفس الطفل ، فهى تدس فى أفكاره وأحاسيسه عوامل خفية يخضع لها العقل وينساق إليها الشعور بحركة لا إرادية خارجة عن نطاق العقل والتفكير .

فمن منا لم يتأثر بكتاب قرأه ؟ ومن منا لم يترك هذا الكتاب فى نفسه أثرا ربما تغير معه مجرى حياته ؟ . . ان المفكرين أنفسهم يتأثرون فى بعض الأحيان بأفكار زملائهم حتى يظنهم الناس يسطون على ثمرات قرائح بعضهم ، ويشاركهم هذا الظن الكتاب أنفسهم ، كما حدث بين مؤلفى روايتى " كنوز الملك سليمان " " وهى أو عائشة " إذ رفع أحد المؤلفين دعوى على الآخر متهما إياه بالسطو على روايته وخراجها بصورة تغايرها إلا فى القليل النادر ، وظل سير هذه القضية موضع حديث الجمهور فى ذلك الوقت .

من هذا يتضح لنا أن القارئ يتأثر ولا شك بما يقرأ حتى انه فى تقليده اللاشعورى لا يكاد يصدق أنه قد خرج عن طبيعته بوحى من قراءته .

وقد يبلغ بالإنسان تأثره بما يقرأ مبلغا عظيما قد يكون خطيرا فى بعض الأحيان كما حدث عند ما انتحر بعض القراء على أثر قراءتهم رواية " آلام فرتر " . وكذلك عند ما نشرت قصة " بول وفرجينى " فقد اعتقد البعض أنها واقعية فبادروا بزيارة جزر الالتياس وحجوا إلى قبر " بول وفرجينى " الوهمى فى ظل الشجرتين المتعانقتين ، وعندى الكثير من الأمثلة التى تدل على أن الانسان يتأثر دائما ولو تأثرا وقتيا بما يقرأ . فالقراءة إذن هى ينبوع يغذى العقل ويسير العاطفة ويوجه الفرد حسب تأثره بها .

لذلك وجب علينا أن ندقق كثيرا فى اختيار الكتب التى ندخلها بيوتنا فلا نقتنى منها إلا المفيد النافع لا المستهتر العابث .

ولا يختلف أثر المجلات كثيرا عن الكتب ، بل غالبا ما يتزايد خطرها حتى تهدد الأسر بالخراب وتتسبب فى شقائها . وأظنني لن أنسى ما كانت تسببه إحدى قصص المجلات الشائعة ذات مرة من التفرقة بين زوجين محبين . كانا على وشك أن يذهبا ضحية تلك الأفكار المسمومة التى رواها كاتب القصة فى قصته كى يضفى عليها جوا من حياته المنطرف الثائر .

كانت القصة تدور حول زوجين شابين ألف الاخلاص بين قلبيهما . . الزوج يتغيب أحيانا عن مواعيد أوبته إلى المنزل ، فتعتقد الزوجة المحبة أنه لابد من عذر قاهر يضطر زوجها إلى ذلك ، فتغفر له . . ولكن الكاتب الذى يعلم جيدا أن موضوعه هذا هو مشكلة كل بيت تقريبا ، أراد ان يدخل الشكوك إلى قلب كل زوجة . . فملأ قلب بطلة قصته بالأوهام الكاذبة وجعل عذارب الشك تدب بظنونها أخيرا فتعتقد أن زوجها يخونها فى أوقات غيابه عن المنزل : وتعمل الظروف من جانبها على تقوية خيوط الشك فى نفسها فتريد أن تنتقم لكرامتها المهينة أعلى حد قول الكاتب ، فتخرج هى الأخرى لتهب قلبها إلى أول عابر سبيل ، وعندما يحاول الزوج أن يعود إليها ، تكون قد فرت بقلبها منه ، وتصبح حياتهما جحيما لا يطاق فيفترقان .

هذا ما صوره خيال الكاتب فى قصته وفى المجلة التى يعلم جيدا أنها تدخل الى كل منزل . . وأمكنه بتهاونه فى نتائج هذا الموضوع الخطير ، أن يرسل أسهما مسمومة إلى قلب كل زوجة ترى من زوجها تباطؤا ولو بسيطا فى مواعيد حضوره إلى منزله . . وكانت احداهن وهى التى عنيتها بسرد قصة ذلك الكاتب إحدى قارئات تلك القصة المشئومة ، فكادت أن تكون إحدى ضحاياها أيضا . . طبقت خيال القصة على الواقع . . معتمدة على أن كاتب القصة رجل يفهم جيدا شعور الرجال . . ولولا لطف الله الذى هدى الزوج أخيرا إلى الحقيقة التى كادت أن تهدم عشهما الذهبى ، لانتهى بهما الأمر كما صور الكاتب تماما . ولا حاجة بى إلى سرد كل ماحدث بين الزوجين فى فترة الشقاق الطويلة . وما فعلته الزوجة على الأخص ، فهذا شىء يمكننا جميعا أن نتصوره بالاستنتاج .

هذا ما حدث من جراء قصة كان فى إمكان كاتبها ان يخوبها نحوا إصلاحيا بعيدا عن التطرف والمغالاة ، ولا شك أن كثيرا منكم قد قرأ تلك القصة ، ويقرأ أمثالها يوميا على صفحات تلك الوريقات الهزيلة التى شاعت هذه الأيام ، حتى أوشكت أن تطغى على مشاعل الثقافة الصحيحة والأدب السليم .

كادت أن تزوى ينابيع الفن بعد أن هجرها الجمهور ، وتحايلت صحائف السفه والنكات الرخيصة وقد شجعها الناس واقبلوا عليها ، ناسين أنها أخطر بكثير من سائر المؤثرات الأخلاقية وان ابتياع صحيفه من تلك الصحائف لهو جرم لا يغتفره المجتمع ، وتشجيع لتلك الترهات على المضى فى عبثها بالأخلاق .

هذا عن الأدب . . أما عن الموسيقى فهى دون شك الفن الذى يعبر عن شعور كل أمة ومستوى تفكيرها ، فما من أمة شاع الخمول فى موسيقاها ، والعويل فى أغانيها ، إلا وكانت أمة خاملة متأخرة لا يرجى لها صلاح ، ولا يمكن أن يكون لها شأن بين الأمم الراقية المتحضرة التى تتصف موسيقاها دائما بالقوة .. وأغانيها بالفتوة والحماس ، مما يحفز الهمم ، وينشط النفوس . . ويرقى بالمشاعر .

فالموسيقى هى روح الشعب المعبر عن رغباته وأخلاقه . . والغناء هو الاتجاه الذى تتجه إليه هذه الرغبات المكبوتة والتعبير الناطق لها . .

ولذا كان من الواجب على كل أمة تود أن يكون لها شأن بين الأمم أن تسمو بأغانيها وموسيقاها لترقى بشعور أبنائها ، وتنتشلهم من غفوة الخمول والنوم الطويل . . ولست أود أن أتناول موسيقانا وأغانينا بالبحث الطويل ، فالعبرة ليست بما مضى بل بما سوف يكون .

أما فن النحت وفن التصوير ، فهما من الفنون الجميلة التى لها من الصفات مثل ما للموسيقى والغناء . . وكلاهما يعبر عن الشعور بابراز الفكرة بطريقته الخاصة . وكلما نحونا بهذين الفنين نحو التعبير المثالى ، البعيد عن مخاطبة الغرائز كلما ارتقينا بمستوى الشعب وابتعدنا به عن التفكير المبتذل الرخيص .

وبقى عندنا الآن من الفنون التى اخترناها فن المسرح وفن السينما . . . ففن المسرح هو فن التعبير عن الفكرة بالحوار ، وفن السينما هو فن التعبير عن الفكرة بالصور ، وكلا الفنين مشترك فى رسالته ووسيلته الفعالة .

وبما أننا قد وصلنا فى حديثنا عن المسرح والسينما فانتناول بالبحث الكلام عن ماهية رسالتهما والغرض من وجودهما . . فكثير من الناس يعتقدون أن المسرح والسينما ماهما إلا أماكن لهو وعبث وتسلية وضياع وقت . ولكن الحقيقة ليست كذلك . . وإن كانت كذلك فما الفائدة إذن من تلك الجهود المتواصلة والأموال الطائلة التى تنفق عليها بقصد النهوض برسالتهما والسمو بها ؟ .

إن رسالة المسرح والسينما هي في الحقيقة أعظم رسالة يمكن بها توجيه أفكار الشعب نحو المثل العليا ومعالجة مشكلاته بالطرق الحكيمة التي تعالجها عقول الكتاب ووسائل التشويق وسلاسة المعاني ، وليس الغرض من عرض الروايات دو إظهار حفلات الرقص . وسماع الأغاني وغيرها ، بل إن هذه ما هي إلا وسائل الغاية منها تشويق الأذهان وإعدادها لتقبل معنى من المعاني السامية أو فكرة إصلاحية مفيدة .

وكلما لوحظ عند تأليف روايات المسرح والسينما . . قوة الفكرة والغرض منها قبل أن تلاحظ وسائل التهريج . . وطرافة النكات كلما كانت أقرب إلى أداء رسالة اجتماعية ترتفع بذوق الجمهور المتلهف إلى تقليد كل مبتكر جديد .

وإننا لو اقتنعنا جميعا بفكرة الإصلاح فيما نكتب وفيما نقرأ ونسمع ونرى . . لارتقينا دون شك مادة ومعنويا ، ولأصبحنا كما نتمنى دائما أن نكون .

وفقنا الله جميعا إلى ما فيه خير أمتنا العزيزة في ظل مليكنا المحبوب فاروق الأول حفظه الله ورعاه لنا

زينب محمد حسين